المقالة الثالثة

الأسباب الخاصة بنجد لزحف أهلها على الحجاز

بينا في المقالة الثانية جل الأسباب العامة لإنقاذ الحجاز من السيد حسين المكي المستبد فيه التي يعدها السلطان عبد العزيز بن سعود موجبة شرعًا للقيام بهذا العمل لمن قدر عليه مثله، وإذا كنا نكتب أمثال هذه المقالات في فترات قصيرة نختلسها من شواغلنا الكثيرة اختلاسًا نسينا أن نذكر في تلك الأسباب عجز المتغلب على الحجاز عن حفظ الأمن بين الحرمين الشريفين ونكثه للعهود التي عاهد أعرابها عليها حين دعاهم إلى الثورة والخروج على الدولة العثمانية وهو أن يعطيهم في كل سنة ضعفي ما كان مرتبًا لهم من الأموال التي كانت ترسلها الدولة إلى الحجاز لإعانة أهله، فكان يعطيهم في سني الثورة ثم منعهم بعدها كما منع أكثر المستحقين للإعانات التي ترسل من مصر – فاضطروا إلى منع الناس من زيارة حرم الرسول ﷺ إلا من يؤدي لهم ما فرضوه بدلاً مما كانوا يأخذونه، كما فصلناه في المنار.

ونبين الآن ما نتذكره من الأسباب الخاصة بالنجديين وهي ترجع إلى غرض واحد هو إزالة استقلال سلطنة نجد وجعلها تابعة لِما يسميه الممالك العربية الهاشمية، والأسباب التي نذكرها حجج ناهضة تدل

على ذلك، وهي:

سرد هذه الأسباب الخاصة:

(١) اننا عقب انكسار الدولة العثمانية في الحرب البلقانية وضعنا مع بعض أهل الغيرة العربية والإسلامية خطة لوقاية بلاد العرب من استيلاء الأجانب عليها، ومنها جمع كلمة أمراء العرب ووضع اتحاد حِلفي بينهم لإزالة العدوان والتعاون على حفظ البلاد العربية وصيانتها من تعدي الأجانب، والفصل في المنازعات الداخلية بين أولئك الأمراء ومَن دونهم من القبائل بالتحكيم ...

وقد تولى كاتب هذه المقالات تبليغ أمراء اليمن ونجد وعسير ذلك، فجاء منهم مكتوبات بالاستحسان وطلب التفصيل وطرق التنفيذ ... وعُهد إلى الشريف عبد الله أن يبلغ ذلك والده حسينًا إذا كان يرجح قبوله له. ولَمَّا وقعت الحرب الكبرى ودخلت الدولة العثمانية في حِلْفَي دول أوروبا الكبرى، وشرعت الدولة البريطانية تخادع جميع أمراء العرب وزعمائهم لتستخدمهم وتستعين بهم على الدولة ثم على أنفسهم لتكافئهم على ذلك بسلب استقلالهم – اشتدت الحاجة إلى تحالفهم واتفاقهم على صيانة البلاد العربية والاحتياط لحفظ استقلالها إذا قُهرت الدولة العثمانية وانكسرت مع أحلافها، ولَمَّا انخدع أمير مكة هذا للرقية البريطانية بسوء سريرته وجهله بشئون

السياسة صارت الحاجة إلى ذلك أشد، وقد أخبرني ولده السيد عبد الله أنه ذكر له اقتراحي ولكن وقعت الحرب عقب ذلك فشغلتهم الثورة عن إعادة القول فيه، أخبرني بهذا في مكة المكرمة بعد إتمامنا مناسك الحج ورغب إليَّ أن أكلم والده فيه، فكلمته وذكرت له شيئًا من خداع السياسة وكون الاستفادة منها منوطة بالقوة ... ولمَّا صرحت له بالمسألة اعتذر عنها بأنه إذا خاطب جيرانه بذلك يظنون أنه عاجز عن مقاومة الترك ويريد مساعدتهم وأن الرأي أن يُرجيء ذلك إلى أن يستولي على المدينة ويخرج الترك من الحجاز كله، فقلت له: لا نكلفكم مخاطبة أحد منهم بل نحن نتولى ذلك ونرجو النجاح فيه وإنما نرجو أن نكون على بينة من رأيه فيه وثقة من رضاه وقبوله للاشتراك فيه إذا أقنعنا سائر الأمراء ... فلم يقبل حتى إنني قلت له: إنني أضمن لكم قبول صاحب نجد وإذا احتيج إلى ذهابي إليه بنفسي فإنني أفعل، فلم يقبل، ثم قال أمام بعض بطانته أو حاشيته: من هؤلاء الكلاب حتى أتفق معهم؟ اليوم يوجد في الدنيا رجل يقال له ابن سعود وغدًا لا يوجد في الدنيا ابن سعود ...

(٢) أن أول عمل عمله بعد الاستيلاء على المدينة المنورة عقب خروج الترك منها بعد هدنة الحرب – وقد عجز عن أخذها منهم بالقوة – أنه جمع كل ما كان يقاتل به الترك هنالك من الجند النظامي والبدوي مجهزًا بأحدث الأسلحة ولا سيما المدافع والرشاشات وقنابل

اليد ووجههم بقيادة ولده السيد عبد الله إلى الشرق لاسترداد الخرمة وتربة فالزحف على نجد، وكانت تلك أعظم قوة حربية اجتمعت لهم في الحجاز يدير حركتها زهاء مائة ضابط عربي جلهم من ضباط العراق البارعين، ولمَّا وصلوا إلى الخرمة باغتوا أهلها وهم في صلاة الفجر ففتكوا بهم وهم يصلون شر فتكة ... فاستنجد الشريف خالد عامل الخرمة الإخوان (الوهابيين) فزحفوا على ذلك الجيش المنظم، فكانوا قضاء الله المبرم، اصطلموا الجيش وغنموا سلاحه وكِراعه وذخيرته، وقتلوا أكثر من ثمانين ضابطًا هم خيار ضباطه، وفر الشريف عبد الله منهزمًا بزي الإخوان، مقلدًا لهم في كلامه.

(٣) ان السيد حسينًا لم يقترح على الإنكليز في «مقررات النهضة» أن يؤسسوا المملكة العربية ويتولوا حمايتها وصيانتها «من الداخل والخارج» إلا لِما في قلبه من العداوة لابن سعود والخوف منه، وهو هو الذي يعنيه بقوله في مادة الحماية الذي ذكرناه في المقالة الثانية «أو حسد بعض الأمراء» فابن سعود أولى الناس بثلِّ هذا العرش المبني على جعل الحرمين تحت حماية غير المسلمين خوفًا منه، وها نحن أولاء نقرأ في جميع الصحف ما جاء في البرقيات من (لندن) من استغاثة الشيخ حسين هذا بالدولة البريطانية ومطالبتها بإنقاذ الحجاز من الوهابية، فالإنكليز يتنصلون من الاعتراف أمام العالم الإسلامي بحمايتهم للحجاز لِما يعلمون من كراهة المسلمين لذلك وعَدِّه اعتداء عليهم في

دينهم، وهو لا يستحي من الجهر بمطالبتهم بذلك ومكافأتهم عليه بتوقيع «المعاهدة البريطانية العربية» على علاتها، وإن كَرِه أصدقاؤه من أهل فلسطين تضمنها لاعترافه بالانتداب البريطاني ووطن اليهود القومي في بلادهم، وكَرِه جميع المسلمين ما جعل للإنكليز فيها من الحقوق في الحجاز وفي معاملة الحجاج! ومتى كان يبالي بالمسلمين أو غير المسلمين إذا رضي عنه الإنكليز؟ ولكن من مصلحتهم الآن أن لا يرضوا عنه ولا ينصروه وهم أعرق الناس في بناء سياستهم على المصالح لا كما يصفهم بأنهم يعملون بمقتضى «الحسيات» بالمعنى الذي يفهمه هو.

(٤) ان هذا الرجل قد شرع منذ سمى (نفسه) ملك العرب وصاحب الممالك العربية، وبايعه مستضعفو مكة وجدة في الجهر بالمُلك وفي السر بالخلافة الإسلامية (كما قالوا أخيرًا عند تجديد البيعة) - شرع يطعن في دين الوهابية وعقائدهم ويرميهم بالكفر وتكفير المسلمين تمهيدًا لقتالهم وأخذ بلادهم ولم يكتف في ذلك بما نشره في جريدته (القِبلة) بلسانها بل صرح بذلك مرارًا في مقالاته ومنشوراته الرسمية كالمنشور الرسمي الذي نشره في العدد ٢٠٢ المؤرخ في ٢٤ شوال سنة ١٣٣٦ هـ، والمنشور الرسمي الذي أصدره في غرة ربيع الأول سنة ١٣٣٧ هـ، والمنشور الرسمي الذي نشره في عدد ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٣٧ هـ.

وقد صرح في المنشور الثاني بعزمه على محو بدعة الوهابية «خدمة للدين وتنزيهًا له مما في هذا الزيغ والضلال وسلامة البلاد من سيئاته»، وذكر في الثالث أنه معهم في موقف دفاع، ثم قال: «فنحن نحرر منشورنا هذا علاوة على ما سبق ليعلم القاصي والداني أنه متى تحقق لدينا عدم نجاح خطة الدفاع أمام مبادئهم فلابد للسلطان من قتالهم بكل موجوديته».

وهذان النصان الرسميان إنذار بأنه يرى وجوب قتالهم لأجل دينهم وإكراههم على ترك عقائدهم وما يدينون الله به، وأنه هو سلطان المسلمين ويفعل هذا أصالة ونيابة عنهم، فإذا كان صرح بهذا والدولة العربية التي اقترح على العظمة البريطانية تأسيسها له وَهْم من الأوهام، والخلافة التي رضيها له ملك الإنكليز حلم من الأحلام، فماذا عسى أن يفعل بهؤلاء النجديين إذا استقر ملك أولاده في العراق والشام، ورضي الإنكليز بأن يؤلف بهم الوحدة العربية، وقد سبق فادعى لنفسه الخلافة الإسلامية؟ اللهم الطف بعبادك وارحمهم برحمتك، وأنقذ من هذا الطاغوت أهل حرمك، ولا تسلطه على أحد من خلقك «كتبت هذه المقالة قبل وصول خبر خلعه ولكن تأخر نشرها»[1].

(١) المنار: نشرت هذه المقالة في الأهرام في ٨ ربيع الأول (١٣٤٣هـ، ٧ أكتوبر (ت ١) ١٩٢٤م)، وكانت أخبار الحجاز قد جاءتنا بأنه استقال، أو خلعه حزب تألف=

قلنا في مقال سابق: أن رميه الوهابيين بالمروق من الدين، واستحلال دماء المسلمين، قد اتبع فيه سلفه الطالح عند ظهور أمرهم في فجر القرن الثالث عشر للهجرة، ونذكر هنا ما فاتنا هنالك من شهادة التاريخ على ذلك، لاتحاد العلة والمعلول في فساد الأول والآخر، ولأنها من الشواهد على ما قيل من «أن التاريخ يعيد نفسه»:

قال المرحوم محمود فهمي باشا، المهندس المصري في الجزء الأول من تاريخه (البحر الزاخر) في سياق الكلام على الوهابية:

«ومن بعد مدة استمرت في محاربات شديدة، ووقائع عتيدة، دخل جميع بلاد العرب في العقائد الوهابية، أي العقائد الإصلاحية للديانة الإسلامية، وصارت نجد أيضًا في حالة سياسية مدنية جديدة، وبدل أن كانت جهتها منقسمة إلى عدة عشائر وشعوب صغيرة منفصلة عن بعضها[1]، ومستمرة في حروب وكروب بين بعضها[2] صارت مقر دولة قوية، وسلطنة سياسية، مثال سلطنة الخلفاء القدماء ولرئيس هذه الدولة السلطة في الأعمال الدينية والدنيوية».

و«مع ما كان عليه الوهابيون من الحروب والمبارزات في بلاد العرب لم يعتدوا على حقوق الحكومتين المجاورتين لهم وهما حكومة

= من كبراء أهل جدة ومن هاجر إليها من مكة، ونصب ولي عهده عليًا ملكًا دستوريًا للحجاز وحده، ثم تبين أن ذلك كان خداعًا كما سنبينه بعد.

(١) الصواب: منفصل بعضها عن بعض.

(٢) الصواب: فيما بينها.

بغداد والحجاز، وكانت قوافل الحجاج تمر من وسط أراضيهم من غير أن يحصل لأي قافلة ضرر أو انزعاج، وكانوا في أحوال أخوية ودية مع الشريف سرور شريف مكة. وفي سنة ١٧٨١ بعد الميلاد استحصلوا على رخصة منه في أداء حجهم وطوافهم بالكعبة، فتولد من زيادة قوتهم ونفوذ شوكتهم اشتعال نار الحسد في قلب الشريف غالب، وفي ظرف بضع سنين من تقلده الحكومة وتوظفه شريف مكة[١] بعد الشريف سرور أعلن حربًا على الوهابية، وكانت طرائق هذه الحرب مثل طرائق حرب البدو متقطعة بهدنات صغيرة قصيرة المدة، ولمَّا انتظمت مخابرات الشريف غالب مع الدولة التركية العثمانية لم يهمل أدنى طريقة يمكنه إجراؤها في تمكين الدولة العثمانية من دخول عساكرها في بلاد العرب لأجل الوقوع بالوهابيين[٢] إلا وأجراها، وأثبت[٣] أنهم من الملحدين الكافرين، وأن معاملتهم مع قوافل الحجاج التركية من أقبح الأعمال الفاسدة المضرة بالدين. اهـ المراد منه هنا بحروفه على ما فيه من غلط لغوي (راجع ص ١٧٣ و ١٧٤ منه).

ثم قد أعقب هذا الافتراء والإفساد أن أمرت الدولة العثمانية حكومة بغداد بقتال الوهابيين ففعلت، فلمَّا اشتغل الوهابيون بقتال الدولة ودخلوا العراق زحف الشريف غالب على نجد واستولى على

(١) أي توليته إمارة الحجاز.

(٢) يقال وقع بالعدو وأوقع به، أي فتك به في القتال، وواقعه: قاتله.

(٣) أي أكد وجزم كاذبًا.

قرية فيها، فكان هذا هو السبب لزحف الوهابيين على الحجاز وفتحه. والآن يريد خلفه حسين أن يُهيج عليهم العالم الإسلامي كله والعالم الأوربي أيضًا بما يرسله من البرقيات التي يلفقها بأسماء مجهولة لحجاج رعايا الدول الأوربية، أو معروفة كلجنة مؤتمر الجزيرة التي ألفها بمكة للفساد والإفساد في البلاد العربية، فهو الذي كتب تلك البرقيات وهو الذي أرسلها إلى البلاد والأقطار والصحف ووكلاء الدول وجمعية الأمم[1] من غير أن يكلف أحد منها قرشًا من أجورها، ومن غرائب غفلات البشر أن وُجد منهم من يصدق ما قيل فيها من اتهام الوهابيين بارتكاب الفظائع التي لا يستبيحون شيئًا منها، وحسبهم أنها شهادة ممن عُرف بالكذب على عدوه وأقرب ما اشتهر من كذبه في جريدته (القِبلة) ومن كذبه في منشوراته الرسمية ادعاؤه مبايعة العالم الإسلامي له بالخلافة حتى مدن مصر المشهورة.

(٥) شن الغارات عليهم وبدؤه بقتالهم عند كل فرصة سنحت له، وأكبر هذه الغارات زحف ولده عبد الله بأكبر قوة اجتمعت له بعد

---

(١) لما فتح الوهابيون الطائف أرسل الملك حسين برقية طويلة من مكة باسم بعض أهلها وألوف الحجاج من رعايا الأجانب فيها إلى قناصل الدول بجدة وإلى جمعية الأمم بسويسرة وعواصم أوربة وجرائدها وأشهر مدن الشرق والغرب وجرائدها يزعم فيها أن الوهابيين اقترفوا أعظم الفظائع والمنكرات ... ثم ظهر كذب البرقية من وجوه متعددة وأن الذين سبقوا إلى احتلال الطائف كانوا من عرب الحجاز التابعين لنجد لا من النجديين، وأن النجديين لما وصلوا إلى الطائف انتظمت الأمور فيها كأنها لم تَصْل بنار حرب.

إخلاء الترك للمدينة المنورة عقب هدنة الحرب العامة وهي التي ذكرناها في السبب الرابع آنفًا، وأوسطها زحفه على منطقة عسير في إثر وفاة السيد محمد علي الإدريسي الذي كان قد تخلى عنها لسلطان نجد، وفي إثر تنكيل الوهابية بحملته هنالك وقعت حادثة حجاج اليمن الذين اعتقد الوهابيون أنهم نجدة منه، فأطلقوا عليهم الرصاص، وبعد أن عُرف الأمر اعتذر السلطان عبد العزيز للإمام يحيى عن هذا الخطأ واتفقا على حفظ المودة بينهما بتعويض مقبول معقول، ولكن حسينًا كان قد أمطر العالم كله برقيات في التشنيع على الوهابيين.

وآخر هذه الغارات حملة ولي عهد حسين الأمير علي على الوهابيين بالقرب من خيبر، وقد مهد لذلك بخدعة هو بارع بأمثالها:

ذلك بأن أعلن عقب زيارته لشرق الأردن في أواخر العام الماضي، بأنه قد عفا عن المسجونين والمعتدين وأباح المرور والدخول في المدينة المنورة وسائر الممالك الهاشمية!! وأنه لا حرج على النجديين في التجارة في بلاد الحجاز، ولمَّا تبعه نجله وولي عهده السيد علي أمير المدينة المنورة [1] والي شرق الأردن، أمره بتأليف حملة لغزو عرب ابن سعود المخيمين بالقرب من خيبر إذ يكونون وادعين هنالك، مغترين بذلك التأمين العام والعفو الشامل، فألفها من ستمائة هجان وأربعمائة فارس بقيادة الشريف جعفر بن سلطان ففتكت بالإخوان المتفرقين في

(١) وهو الذي وردت البرقيات قبل نشر هذه المقالة بنصبه ملكًا على الحجاز وهو أعجز من والده عن إدارته وحفظ الأمن فيه.

الأطراف وسلبت أموالهم ومواشيهم وهمت بالرجوع ولكن نبأها كان وصل إلى الإخوان الذين في جهة خيبر فاتبعوها وفتكوا بها فتكة لم يسلم منها إلا أفراد من فارة الهزيمة واسترجعوا جميع ما أخذت، ووصل قائد الحملة الشريف جعفر إلى المدينة المنورة مضرجًا بدمه فكان من سوء تأثير هذه الحملة أن زالت بقية الثقة بأقوال «ملك جميع البلاد العربية» على ما أضيف إليه من لقب «الخلافة الإسلامية» وانقطعت سبل التجارة بين نجد والمدينة المنورة كما انقطعت مع مكة قبلها، وكان ذلك سببًا لشدة غلاء اللحم والسمن في الحجاز كله.

على أن الأمير عليًا أذاع في جرائد سورية وفلسطين وغيرهما وجريدتهم (قِبلة الكذب) أن بعض الوهابيين حاولوا الاعتداء على سكة الحديد الحجازية فأدبتهم الجنود الهاشمية، أو ما هذا معناه. هذا ملخص ما كتبه إلينا بعض رجالهم بل ضباطهم.

(٦) بث حسين الدسائس وإغراؤه للعداوة والفتن بين نجد والبلاد المجاورة لها، منذ اعتقد أن الحجاز صار ملكًا له وأنه سيكون في خاتمة الحرب ملكًا على جميع البلاد العربية بما كان يكتبه إلى ابن الرشيد وآل عايض وغيرهم، وهذا أمر قد أذاعته حكومة نجد في البلاغ الذي نشره الأمير فيصل نجل سلطان نجد في جرائد مصر وغيرها المؤرخ في ٢٠ رجب سنة ١٣٤٢ وقد جاء فيه ما نصه:

«إن تحت يدنا من الكتب والرسائل التي وجدت في تربة والحرمة وعسير ما يفيد أن ملك الحجاز وولده عبد الله لا يسعون إلا لشهواتهم

ومصالحهم ولو أدى ذلك إلى هدم بناء العرب، ولكننا نمسك عن نشرها الآن فإن سمح لنا ملك الحجاز بنشرها نشرناها وهنالك يعلم العالم الإسلامي والعربي تلك الجنايات والدسائس» إلخ.

(٧) ما ذكر في هذا البلاغ النجدي الرسمي من بث حسين الدسائس في بُرَيْدَة من بلاد نجد وإغرائها بالخروج على حكومتها.

(٨) أنه كان سببًا في فشل مؤتمر الكويت إذ اشترط في الاتفاق مع ابن سعود تركه لبعض بلاده كما هو مشهور[1].

فعلم من هذه الأسباب أنها تفصيل لخطة حسين فيما سماه الوحدة العربية التي ذكرنا نص عبارته الرسمية فيها في المقالة السابقة، وهي واضحة في أنه لا يقر له قرار حتى يزيل سلطنة نجد من الوجود ويجعل بلادها تابعة له. وهذا كاف في عرف كل دولة وكل حكومة في العالم لمقابلته بالمثل، ولكن السلطان ابن سعود لم يحفل يومًا ما بعداوة شريف مكة لعلمه بضعفه وعجزه أن ينال منه منالاً، وقد صرح تصريحًا رسميًا بأنه إنما ينقذ الحجاز من ظلمه وبغيه لأجل المصلحتين الإسلامية والعربية اللتين فصَّلنا أسبابهما في المقالة السابقة. وسنبين في

(١) تواطأ ملك الحجاز حسين هو وابناه فيصل ملك العراق وعبد الله أمير شرق الأردن على أن يشترطا في اتفاقهما مع سلطان نجد على الحدود وغيرها الاتفاق على حدود الحجاز ومطالبه، وصرحوا بأن منها ترك سلطان نجد لبلاد حايل وللجوف وسكاكة من بلاده المتصلة بسورية وللخرمة وتربة من جهة الحجاز ولعسير – ولذلك فشل مؤتمر الصلح.

المقال التالي وجه الوجوب الشرعي لهذا الإنقاذ ممن سمى نفسه (المنقذ) ونبين أن هذا خدمة جليلة للمصلحتين بالدليل والبرهان.

***